



تحليل سياسات

السلفية اللبنانية في تمظهراتها الجديدة

سعود المولى | يوليو 2014

السلفية اللبنانية في مظهراتها الجديدة

سلسلة: تحليل سياسات

سعود المولى | يوليو 2014

جميع الحقوق محفوظة للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات © 2014

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات مؤسّسة بحثية عربية للعلوم الاجتماعية والعلوم الاجتماعية التطبيقية والتاريخ الإقليمي والقضايا الجيوستراتيجية. وإضافة إلى كونه مركز أبحاث فهو يولي اهتماماً لدراسة السياسات ونقدها وتقديم البدائل، سواء كانت سياسات عربية أو سياسات دولية تجاه المنطقة العربية، وسواء كانت سياسات حكومية، أو سياسات مؤسسات وأحزاب وهيئات.

يعالج المركز قضايا المجتمعات والدول العربية بأدوات العلوم الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية، وبمقاربات ومنهجيات تكاملية عابرة للتخصصات. وينطلق من افتراض وجود أمن قومي وإنساني عربي، ومن وجود سمات ومصالح مشتركة، وإمكانية تطوير اقتصاد عربي، ويعمل على صوغ هذه الخطط وتحقيقها، كما يطرحها كبرامج وخطط من خلال عمله البحثي ومجمل إنتاجه.

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

شارع رقم: 826 - منطقة 66

الدفنة

ص. ب: 10277

الدوحة، قطر

هاتف: +974 44199777 | فاكس: +974 44831651

www.dohainstitute.org

1	مقدمة
1	جدل حول مزاعم تورّط التيارات السلفية اللبنانية في العنف
4	أسباب صعود التطرف السلفي في لبنان
6	تحولات السلفية اللبنانية
12	خاتمة

مقدمة

منذ اندلاع الثورة السوريّة (آذار/مارس 2011)، بدأ الحديث عن قوة التيار السلفي وحضوره في لبنان يتصاعد ويأخذ أشكالاً تحريضية - ضدّ ما يسمّى تحديداً "بالسلفيين التكفيريين" - حتى بدا هذا التيار كأنّه نبت مفاجئ طارئ على الحياة السياسية في لبنان، وأنّه تيار واحد موحد بعنوان تكفيري إرهابي، وأنّه صار فجأةً هو المسيطر على الحياة السياسية والاجتماعية للمسلمين السنّة في لبنان.

جدل حول مزاعم تورّط التيارات السلفية اللبنانية في العنف

في مقابل الاتهام والتشكيك الذي حملته الكلام عن السلفية والسلفيين عند حزب الله والقوى المتحالفة معه، ساد القوى المعارضة لحزب الله الخوف والقلق؛ وذلك بسبب ما شهدته طرابلس وصيدا وعرسال - وهي مدن سنّية كبرى في لبنان - من أحداث قال حزب الله إنّه كان للتيار السلفي دورٌ كبير فيها؛ وقال معارضو الحزب إنّه هو من كان يشعلها لزرع بذور الشقاق والفتنة بين الجيش اللبناني و"أهل السنّة"، ولتبرير القيام بهجمات مسلّحة على هذه المدن¹. وقد جاءت المواجهات مع حركة الشيخ أحمد الأسير في ضواحي صيدا

¹ كارين بولس، "عرسال تخشى عملية عسكرية ضدها"، موقع ناو لبيانون، 22 آب/أغسطس 2013، على الرابط:

(عبرا)²، وقبلها حادثة اغتيال شيخين على حاجز للجيش في عكار³، والتفجيرات التي وقعت في ضاحية بيروت الجنوبية⁴ ومن بعدها مدينة طرابلس⁵، ثم موجة الذعر جرّاء قيام تنظيم دولة الإسلام في العراق والشام "داعش" والقاعدة بتفجيرات أخرى في بيروت⁶، لتثير الكثير من الأسئلة بخصوص حقيقة اتهامات

² خلال شهري أيار/مايو وحزيران/يونيو 2013 حدثت إشكالات في منطقة عبرا/صيدا، بين إمام "مسجد بلال بن رباح" الشيخ أحمد الأسير و"سرايا المقاومة" التابعة لـ "حزب الله"، تمحورت حول وجوب إخلاء شقق "سرايا المقاومة" من محيط المسجد... تطوّر الأمر، يوم الثلاثاء 18 حزيران/يونيو، إلى اشتباكات استُخدمت فيها مختلف أنواع الأسلحة المدفعية والثقيلة والرشاشة. وفي خطبة يوم الجمعة 21 حزيران/يونيو أعلن الشيخ الأسير عن تأجيل تحرّكه الذي كان حدّده يوم الإثنين 24، إلى ما بعد انتهاء الطلاب من امتحانات الشهادة الرسمية. وبوم الأحد 23 حصل إشكال بين مناصري الأسير وعناصر الجيش اللبناني، تطوّر إلى قتال عنيف. فشهدت منطقة عبرا هجوماً كبيراً للجيش اللبناني على مسجد الشيخ الأسير ورفاقه، استُخدمت فيه مختلف أنواع الأسلحة، وسقط أكثر من 16 قتيلاً للجيش اللبناني والعشرات من الجرحى، وانتهت المعركة بمقتل عدد كبير من مجموعة الأسير (لم يُعرف بالتحديد) الذي فرّ مع الفنان المعتزل فضل شاكر، والدائرة الضيقة جداً، إلى خارج الطوق الأمني الذي ضربه الجيش. وقد اتّهمت فعاليات صيداوية منها السيدة بهية الحريري والرئيس فؤاد السنيورة حزب الله بالقتال إلى جانب الجيش، لا بل بتوريطه في هذه المعركة التي أصابت عبرا ومحيطها بدمار رهيب. (الوكالات والصحف، 18 و22 و23 و24 حزيران/يونيو 2013).

³ "التحقيق" مع عناصر الجيش المسؤولة عن مقتل الشيخ أحمد عبد الواحد ورفيقه، ومشايخ عكار يحذرون من تصرفات بعض العناصر 'المرتنة'، ويدعون لإضراب عام غدًا، نهار نت، 20 أيار/مايو 2012، على الرابط:

<http://www.naharnet.com/stories/ar/40851>

⁴ الثلاثاء 9 تموز/يوليو 2013 في منطقة بئر العبد والخميس 15 آب/أغسطس 2013 في منطقة الرويس، وهما من المناطق الشعبية الشعبية في ضاحية بيروت الجنوبية تُعرفان باكتظاظهما السكاني الكثيف، وبوقوعهما تحت سيطرة حزب الله الأمنية والعسكرية.

⁵ في مسجدين للتيار السلفي: الأول هو مسجد التقوى وإمامه الشيخ سالم الرفاعي، والثاني مسجد السلام وإمامه الشيخ بلال البارودي. وذلك عند صلاة يوم الجمعة 23 آب/أغسطس 2013. وقد ادّعى مفوض الحكومة لدى المحكمة العسكرية اللبنانية القاضي صقر صقر على الشيخ هاشم منقارة (رئيس مجلس قيادة حركة التوحيد الإسلامي، عضو جبهة العمل الإسلامي) والموقوفين الشيخ أحمد الغريب (مساعد الشيخ منقارة) ومصطفى حوري وكلّ من يظهره التحقيق، في جرم تأليف عصابة مسلّحة بقصد ارتكاب الجنايات على الناس والأموال، والنيل من سلطة الدولة وهيبتها، والتعرّض لمؤسساتها المدنية والعسكرية، وتشكيل خلية إرهابية، ووضع عبوات وسيارات مفخّخة وتفجيرها أمام المسجدين في الشمال. كما ادّعى صقر على النقيب السوري محمد علي وعلى خضر العريان بجرم وضع سيارات مفخّخة وقتل الناس... (الوكالات - الصحف: الجمعة 30 آب/أغسطس 2013).

⁶ فيفيان الخولي، عندما أصبحت الفنادق ملاًّلاً للانتحاريين، ناو لبيانون، 2014/6/28، على الرابط:

<http://goo.gl/mRyg2e>

وانظر أيضاً: القاضي صقر ادّعى على 28 شخصاً بينهم 7 موقوفين ألقى القبض عليهم في الفنادق وغيرها بجرم الانتماء إلى "داعش"، على الرابط:

<https://now.mmedia.me/lb/ar/nownewsar/554706>

حزب الله "السلفيين التكفيريين" ومسؤوليتهم عن تدهور الأوضاع الأمنية في البلد⁷. وكان أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله أعلن "التوصل إلى نتائج حاسمة بشأن انفجار الرويس، وتحديد الجهة التي تقف خلف هذا الانفجار، والجهة المشغلة والأفراد المشغلين، ومنهم سوريون معارضون وجماعات تكفيرية، وأن هذه النتائج توصلت إليها الأجهزة الأمنية الرسمية"⁸ (وذلك على الرغم من عدم صدور أي موقف أمني رسمي أو قرار قضائي يؤكد اتهامات نصر الله). كما أعلنت قناة "المنار" التلفزيونية التابعة لحزب الله عمّا أسمته "مضمون التحقيقات" التي أجراها الحزب. وأشارت إلى بلدة عرسال التي "حُصّر فيها التفجير"⁹. وقد غدت عرسال بفعل التعبئة الإعلامية من النوع السالف الذكر تنتظر عملية عسكرية تستهدفها بحجة تطهيرها من "الإرهابيين التكفيريين"، خصوصاً بعد نجاح حزب الله والنظام السوري في السيطرة على كلّ المنطقة السورية المحاذية لحدود البقاع الشمالي من لبنان، ثم السيطرة على قرية الطفيل مؤخراً¹⁰.

وجاء الإعلان عن تهديدات وعمليات ستقوم بها "كتائب عبد الله عزام"، ولواء أحرار السنة في بعلبك، ليكشف عن حالة من التضليل الإعلامي الذي يخطط الأمور بحيث تضع الحقيقة ويزداد الخوف، وبالأخص في صفوف المسيحيين؛ إذ صدرت بيانات تهدد بنسف كنائسهم في لبنان وتفجيرها¹¹.

وقد شككت مصادر أمنية لبنانية في صحة هذه التهديدات وحتى في وجود بعض هذه التنظيمات، بعد أن تمكنت الأجهزة الأمنية اللبنانية من تحديد مصادر بثّ التغريدات على موقع "تويتر" باسم "لواء أحرار السنة

⁷ "الأمين العام لحزب الله يرحّب فرضية وقوف 'جماعات تكفيرية' خلف تفجير الضاحية"، حسن نصر الله في خطاب له يوم الجمعة 16 آب/أغسطس 2013، على الرابط:

<http://www.youtube.com/watch?v=pEdGuG8V8Es>

⁸ في خطابه يوم الإثنين 23 أيلول/سبتمبر 2013. انظر: المستقبل، الثلاثاء 24 أيلول/سبتمبر 2013، العدد 4815 - شؤون لبنانية - ص 4.

⁹ "هكذا تلقت عرسال رسالة حزب الله"، النهار، 25 أيلول/سبتمبر 2013، على الرابط:

-هكذا-تلقت-عرسال-رسالة-حزب-الله <http://www.annahar.com/article/70329>

¹⁰ "الطفيل بيد النظام السوري وحزب الله"، ناو لبيانون، 2014/6/23، على الرابط:

-الطفيل-بيد-النظام-السوري-وحزب-الله- <https://now.mmedia.me/lb/ar/nownewsar/552799>

¹¹ "الشهال: لواء أحرار السنة" فصيل مشبوه يشوّه صورة الإسلام"، ناو لبيانون، 2014/7/5، على الرابط:

-الشهال-لواء-أحرار-السنة-فصيل-مشبوه-يشوّه- <https://now.mmedia.me/lb/ar/mediawatchinthepressar/554476> صورة-الإسلام

في بعلبك¹². "وثارَت شكوك حول وجود "منظومة استخبارية تتولّى توزيع مثل هذه البيانات على "تويتر" للتحريض على "أهل السنة" في لبنان، لا سيّما في منطقة بعلبك. كما صرّح وزير الداخلية نهاد المشنوق ردّاً على ما صدر عمّا يسمّى "لواء أحرار السنة" من تهديدات: "أنا لا أعلّق أهميةً على هذا الكلام، لأنّه كلام مخابراتي معروف أصوله وجذوره"¹³. ووفقاً لنتائج تحقيقات تسرّبت إلى وسائل إعلام لبنانية، تبين أنّ ما يسمّى "لواء أحرار السنة - بعلبك" تنظيم غير معروف إلا عبر التغريدات على موقع تويتر، وأنّ الأجهزة المختصة ختمت التحقيق بشأن "لواء أحرار السنة"، وجرى تحديد الشخص الذي يديره، وعُرف لاحقاً أنّه مندوب لحزب الله مقيم في سورية¹⁴.

وفي مقابل تفنيد الاتهامات وتداعيتها بخصوص حقيقة تورّط تيارات سلفية لبنانية في أعمال عنف داخل لبنان، ظهرت مؤشرات على اتخاذ التورّط السلفي اللبناني بعداً إقليمياً؛ إذ فجّر انتحاري لبناني الجنسية يدعى "أبو حفص"¹⁵ نفسه في مقهى شعبي في منطقة "الوشاش" وسط بغداد، يوم الأحد 6 تموز/يوليو 2014، موقِعاً قتلى وجرحى. وقد نفّذ الانتحاري عملياته تحت جناح الدولة الإسلامية في العراق والشام "داعش" ما يشير إلى أنّ حدود مشاركة بعض المتشدّدين اللبنانيين في أعمال عسكرية قد تجاوزت سورية لتصل إلى العراق.

أسباب صعود التطرف السلفي في لبنان

أدّت مشاركة حزب الله في القتال إلى جانب النظام السوري، إلى زيادة التوتر الطائفي بين السنة والشيعية في لبنان على خلفية تزايد شعور السنة بالتهميش والضعف، ما أتاح مناخاً ملائماً لحراك سلفي راديكالي

¹² الحياة، 7 تموز/يوليو 2014.

¹³ النهار، 7 تموز/يوليو 2014.

¹⁴ انتهاء التحقيقات حول "لواء أحرار السنة" ومن يديره يدعى ح.م"، لبيانون فايلز، 2014/7/6، على الرابط:

<http://www.lebanonfiles.com/news/738261>

¹⁵ اسمه الحقيقي مصطفى عبد الحي، وهو من طرابلس، انظر: "أول انتحاري لبناني في العراق يتحدّر من طرابلس"، الشرق الأوسط، 2014/7/8، على الرابط:

<http://www.aawsat.com/home/article/133471>

جديد اتخذ في بعض الأحيان طابعاً مسلحاً عبر الدعوة للجهاد في سورية¹⁶. وكان من الطبيعي أن تتحوّل طرابلس إلى ساحة للصراع بسبب العداة القديم بين حيّ جبل محسن الذي تقطنه غالبية من العلويين وحيّ باب التبانة الشعبي الذي تقطنه غالبية من السنّة. وقد بلغ الاستقطاب المذهبي في لبنان حدّاً حادّاً بالأمين العام للأمم المتحدة إلى القول في تقرير رفعه إلى مجلس الأمن إنّه "على مدى الأشهر الستة الماضية، كان للاضطرابات الجارية في الجمهورية العربية السورية المزيد من التأثير على لبنان، كما رفع من حالة الاستقطاب السياسي والقلق من أن يكون للاضطرابات في سوريا عواقب سلبية على استقرار لبنان. فعلى وجه الخصوص، زادت التوترات المحلية بشكل ملحوظ عبر لبنان بين الجماعات ذات المواقف المتباينة في مواجهة الأزمة السورية، ما أدّى إلى اشتباكات مسلحة أسفرت عن مقتل وإصابة العديد من الناس في شمال البلاد"¹⁷.

لقد برز تزايد نشاط السلفيين في لبنان نتيجة من نتائج الثورات العربية على العموم، والحرب في سورية على وجه الخصوص. وعملت الصبغة الطائفية للصراع في سورية ولبنان لفائدة السلفيين الجدد. وكان السلفيون الجهاديون الذين فرّوا من لبنان خلال فترة الوجود السوري قد عادوا إلى منطقة طرابلس في أعقاب انسحاب القوات السوريّة عام 2005. وعندما بدأت الانتفاضة السورية في عام 2011، ومع تدفّق اللاجئين السوريين إلى طرابلس وعمار، قام السلفيون إلى جانب الجماعة الإسلامية، بتأمين المأوى لهؤلاء؛ ما أسهم في تعزيز نفوذهم في شمال لبنان. وإضافةً إلى الانتفاضات العربية والثورة السوريّة، هناك عوامل أخرى أدت إلى دخول السلفيين في لبنان إلى معترك الحياة السياسية، أهمّها غياب قيادة سنّية واضحة وقوية. فقد تنامي خلال السنوات 2005-2011 (تاريخ اندلاع الثورة السورية) شعور بالقلق على الدور السنّي الجامع الذي بات عرضة للضعف بسبب الانقسام السياسي السنّي وغياب رئيس تيار المستقبل، إضافةً إلى التدهور

¹⁶ في 2 آذار/مارس 2013 حدّر الشيخ داعي الإسلام الشهابي بإصدار "فتوى جهادية بحق المتطاولين على الطائفة السنية". وفي بيان وزّع الإثنين 22 نيسان/أبريل 2013، أكد الشيخ أحمد الأسير على وجوب "الجهاد في سوريا من قبل كل مستطيع لا سيما من أهل لبنان". وقال عضو هيئة علماء المسلمين في لبنان الشيخ سالم الرفاعي الثلاثاء 23 نيسان/أبريل 2013 "إن تدخل حزب الله في سوريا يجزّ البلاد إلى فتنة داخلية ويدفع الجيش السوري الحر لقصف القرى اللبنانية"، وذلك بعد يوم من إعلانه التعبئة العامة لنصرة من وصفهم بالمظلومين في منطقة القصير بريف حمص على الجانب السوري من الحدود السورية اللبنانية. سبق ذلك خبر مقتل حوالي 17 مراهقاً وشاباً طرابلسياً كانوا متوجهين إلى سورية لقتال النظام السوري ضمن مجموعة تتبع لشيخ شاب طرابلسي من باب التبانة اسمه خالد المحمود. ويبدو أنّ المجموعة وقعت في كمين نصبه لها الجيش السوري في منطقة تلكلخ يوم السبت أول كانون الأول/ديسمبر 2012 (الوكالات والصحف يوم الأحد 2 كانون الأول/ديسمبر 2012، وفي 2 آذار/مارس و 22 و 23 نيسان/أبريل 2013).

¹⁷ الأمين العام للأمم المتحدة في تقريره النصف سنوي الصادر بتاريخ 18 تشرين الأول/أكتوبر 2012.

الحاصل في أحوال دار الفتوى والصراع الناشب داخلها بين المفتي وأعضاء المجلس الشرعي. وثمة عامل آخر في التحول السلفي باتجاه الانخراط العلني في الحياة السياسية اللبنانية يعود إلى تنامي دور شيوخ سلفيين مثل الشيخ سلمان العودة الذي صار له تأثير كبير في أوساط سلفية لبنان والعالم العربي. فيما انحازت تيارات سلفية لبنانية أخرى إلى مشايخ آخرين، مثل الشيخ العرعور، ممن يؤطرون الثورة السورية وكأنها معركة مع الشيعة في العالم العربي. وتجد هذه الحجة صداها عند الكثيرين، نظرًا إلى اعتماد النظام السوري على المساعدة التي يقدمها حزب الله وإيران¹⁸. وهكذا صار الإسلاميون، والسلفيون خصوصًا، يشعرون بأن حزب الله والشيعة يريدان تحقيق الغلبة على كل الطوائف في لبنان، وعلى أهل السنة بالتحديد، رابطتين ذلك بما جرى ويجري في العراق والبحرين، وبحديث عن سعي إيران لإقامة ما يسمّى بـ "الهلال الشيعي"¹⁹.

تحولات السلفية اللبنانية

كان التيار السلفي في لبنان موجودًا بصورة أو بأخرى منذ العقد الخامس للقرن العشرين، ولكن تضاعفت أهميته في العقدين الأخيرين بسبب خروجه إلى المجال السياسي العام بعد سنوات طوال من الاكتفاء بالعمل الدعوي والخيري الاجتماعي. وتبلور هذا الخروج السلفي إلى المجال العام وتطور باتجاه راديكالي مع انفجار الصراع ضدّ النظام السوري وحليفه حزب الله؛ وعليه فقد حكّمته سياقات هذا الصراع العنيف وآلياته؛ فاندلاع الثورة السورية كان له أكبر الأثر في التحولات والتظاهرات الجديدة للتيار السلفي خصوصًا في مدينة طرابلس.

¹⁸ انظر: جنيف عبدو، "المذهبية الجديدة: الانتفاضات العربية وانبعث الانقسام الشيعي - السني"، ورقة تحليل رقم 29، نيسان/أبريل، 2013، مركز صابان لسياسات الشرق الأوسط في معهد بروكنز الأميركي.

¹⁹ الهلال الشيعي مصطلح سياسي استخدمه الملك الأردني عبد الله الثاني لـ "واشنطن بوست" وأثناء زيارته الولايات المتحدة في أوائل شهر كانون الأول/ديسمبر عام 2004، عبّر فيه عن تخوّفه من وصول حكومة عراقية موالية لإيران إلى السلطة في بغداد تتعاون مع طهران ودمشق لإنشاء هلال يخضع للنموذج الشيعي يمتد إلى لبنان ويخلّ بالتوازن القائم مع السنة. ورأى في بروز هلال شيعي في المنطقة ما يدعو إلى التفكير الجدي في مستقبل استقرارها. وهو ما يمكن أن يحمل تغيّرات واضحة في خريطة المصالح السياسية والاقتصادية لبعض دول المنطقة.

إنّ التظاهرات الجديدة للتيار السلفي في لبنان، كما في غيره من البلدان العربية، تتخذ شكل حركات اجتماعية في المقام الأول؛ فهي مؤسسات سياسية غير رسمية (أهلية) في إحدى صورها؛ أي أنّها جزء أساسي من النظام الاجتماعي، لا يمكن فصلها عنه بأيّ صورة، وما يترافق مع ذلك من دراسة مظاهر الصراع وطرق السيطرة عليه. ويتمثل شرط نجاح الحركات الاجتماعية في "صياغة مذهبٍ قادرٍ على إثارة الحماس والالتزام بنشاط سياسي متواصل والاستناد إلى نظرية اجتماعية تستطيع شرح المسائل الرئيسية، وإيضاح الأهداف وطرق الوصول إليها، وتخطيط الصيغ البديلة للمجتمع"²⁰. وفي حين أنّ السلفية الإصلاحية (التقليدية) كانت تقتصر على الحقل الديني، فإنّ السلفية الراديكالية الجديدة تقف في مواجهة البيئة الاجتماعية التي تعدّها مشوّهة؛ فالسلفية الجديدة تسعى إلى إعادة إدخال "تمام الدين" في جميع مناحي الحياة السياسية والاجتماعية وذلك لمكافحة الخلل الذي أحدثته التحديث المادي. إنّها الرغبة في إعادة بناء النظام الاجتماعي على أساس قواعد معيارية مستوحاة من النصوص المقدّسة تحمل في طياتها اختلافات متعددة وفقاً للتقاليد الدينية المختلفة وللسياقات السياسية الاجتماعية التي تبرز فيها الأصولية. وتتوقّف درجة التطرّف في القول والعمل، من ضمن جملة أمور، على القدرة على الاندراج في المؤسسات السياسية.

وتلتقي السلفيات كلّها في الجانب الفكري النظري عند معاني الدعوة الأولى، وهي كونها حديثة فقهية تهتمّ بتنقية الدين الأصلي ممّا علق به من بدعٍ وخرافات (العودة إلى أصول الدين، وإحياء تراثه)؛ ما يعني تنقية العقائد والممارسات وتطهيرها، في آنٍ معاً. وهذا يجعل منها حالة مركّبة من أصولية إحيائية من جهة (تنقية العقائد)، وحركية اجتماعية سياسية من جهة أخرى (إسلام سياسي وتنظيم حديث).

لقد تمظهرت سلفية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين في مواجهة الصوفية والتدين الشعبي من جهة، وفي مواجهة الحداثة والتغريب الاستعماريين من جهةٍ أخرى؛ ما جعلها تستقلّ عن السلطة والمؤسسة الدينية الرسمية من جهة (الدولة العثمانية التي كانت تعزّز الطرق الصوفية والممارسات الدينية الشعبية)، وعن المجتمع والدولة الحديثة من جهةٍ أخرى. تميّزت السلفية المعاصرة برفضها العلاقات الاجتماعية الحديثة (الاختلاط، واللباس العصري، إلخ...)، ورفضها المؤسسات الاجتماعية الحديثة (الصراع ضدّ العلمانية ومؤسساتها ومثالها المعركة ضدّ نقابة المحامين في الخمسينيات)، والسلوكيات الدينية الشعبية (زيارة الأضرحة والمقامات، واحتفالات الموالد، إلخ...)، لذلك لم تلقَ رواجاً في الوسط الشعبي المسلم الصوفي

²⁰ توم بوتومور، علم الاجتماع السياسي، ط1 (بيروت: دار الطليعة، 1986)، ص 62.

في طرابلس وعمار على سبيل المثال، ما أدى إلى انحسارها بعد خسارتها معاركها الأولى (1948-1952). غير أنها عادت بصورة جديدة مع الحرب الأهلية عام 1975 قبل أن تقضي عليها حملة النظام السوري على طرابلس عام 1985. لكنّها عادت مجدداً مع تنامي التوتّر السنّي الشيعي والحرب الدموية في سورية، ما حوّلها إلى حركة اجتماعية احتجاجية ترتبط بآليات الصراع في المنطقة، وتُنتج أشكالاً وتعبيرات متفارقة وتعيد إنتاجها؛ أهمّها وأخطرها الاصطفاف الهويّاتي الطائفي المذهبي.

السلفية اليوم ظاهرة سوسولوجية وأنتروبولوجية ونفسية وسياسية مطلوب فهم حقيقتها وحجمها ودورها وقدرتها على الاستقطاب والتعبئة في ظروف انقسام مجتمعي مذهبي طائفي، كما هي الحال في لبنان. والسلفية بوصفها أيديولوجية دينية صار لها قدرة هائلة على الجذب والتشديد، نظراً إلى استهدافها البسطاء من الجمهور. وهي تقوم على تبسيط العقائد (التوحيد على سبيل المثال)، وتبسيط السلوكيات (الاقتداء بالسلف في كلّ مناحي الحياة اليومية؛ من مأكّل، وملبس، إلخ...). وفي موازاة أنماط التدين والسلوكيات الأهلية الأصلية في المجتمع السنّي (الطرابلسي الصوفي مثلاً) تقيم السلفية أنماطاً قادرة على التوسّع التدريجي والتحوّل إلى نمط عامّ سائد، ما يطرح سؤالاً عن مدى ضعف الأنماط التقليدية واضمحلالها والمقدار الذي حلّت به محلّها تصوّرات ورموز وأنماط جديدة (وهأبى نجدية) لا ترتبط بالبيئة المحلية المدنية المتوسطة، بل تتمظهر في انفصال تامّ عنها في الشكل والمضمون؛ خصوصاً وأنّ البعض يرى أنّ الحركة الاجتماعية الجديدة (المتظهرة بالسلفية) تماهت مع المدينة المتوسطة وخصوصياتها الاجتماعية من خلال استعادة موقع الحارات في المدينة القديمة ودور الفتوة والشباب فيها المترافق مع التركيز على العنف الهامشي في مقابل عنف المركز. ويمكن ملاحظة هذا في مدينة طرابلس التي انقسمت ما بين الحارات القديمة والشوارع الحديثة، وهجر بعض الطرابلسيين حاراتهم القديمة للسكن في المناطق الجديدة، في حين أدّت الهجرة الريفية إلى تكدّس الوافدين في أحياء عشوائية في ضواحي طرابلس، كما انتشروا في الحارات القديمة إلى جانب فقرائها الذين لم يغادروها²¹.

وتعبّر السلفية بصيغتها الحركية الجديدة عن تحوّل سوسولوجي في أنماط التدين الشعبي التقليدي من جهة، وفي المشاركة السياسية في المجال العام من جهةٍ أخرى. ذلك أنّ النماذج القديمة للتدين (المؤسسات الدينية الرسمية، والجماعة الإسلامية، وحركة التوحيد) غدت إمّا ضعيفة وإمّا هامشية الدور والفاعلية في ظلّ

²¹ انظر: خالد زيادة، حارات الأهل جادات اللهو (بيروت: دار النهار، 1995)، ص 90-96.

صعود الاستقطاب الطائفي المذهبي الحادّ في المرحلة التي تلت أحداث 2005-2006. فمن جهة، تأتي السلفية الجديدة لتسدّ هذا الفراغ. ومن جهةٍ أخرى، صار التمثيل السياسي للجماعة الدينية (الإسلام السنّي) في يد فئات بعيدة عن مشاعر القاعدة الشعبية وهمومها، أو أنه لا يلبي طموحاته وهواجسها (الزعامات التقليدية، وتيار المستقبل).

السلفية هنا توصيف لحركة اجتماعية يغلب عليها التدين الطائفي المذهبي الذي يحاول ضمان استقلاليته تجاه العلاقات الاجتماعية السائدة، ويسعى إلى الصفاء الذاتي والطهارة بمعزل عن بيئته (المسلمة السنّي). إنه تدين راديكالي تتبناه حركة اجتماعية ترفض المؤسسات القائمة (اجتماعية، وسياسية) وتحمل نزعة محافظة إلى أقصى حدّ تتلبس شكل الاحتجاج على ما طرأ على الدين من تطوّرات وتحولات في مواجهة الآخر: من هنا أهمية وعي الذات والخصوصية الذاتية في تشكّل الحركة واستمرارها على قاعدة تحوّلها إلى هوية تمتلك نظامًا خاصًا للمعنى كما يتجسّد في الأنساق الترميزية المكثفة التي تبثها الحركة الجديدة.

كما يستخدم هذا التيار خطابًا أيديولوجيًا يتيح لأتباعه حالة من الوعي التطهري تتماهى مع الطهورية الشخصية النضالية للشباب/الفتيان في الحارة. وبترافق ذلك مع أنماط فعل/أساليب عمل وتحرك ترتبط بموروث موجة الإسلام السياسي الحركي النضالي الراديكالي.

ويتعلّق المظهر البارز للإحياء الإسلامي "السلفي الجديد" بالمستوى الاجتماعي، وبروز موجة التدين الشعبي، واضطلاع الجماهير بأعمال وأدوار دينية واضحة؛ كبناء المساجد، وإقامة جمعيات تحفيظ القرآن الكريم، والعناية بمقامات الأولياء وأضرحتهم، والإقبال على الطرق الصوفية وحضور الدروس الدينية، وتأسيس الجمعيات الثقافية الإسلامية، وجمعيات التكافل الاجتماعي. إنّه مظهر خاص بما يُصطلح عليه بالمجتمع الأهلي، أي مبادرة جمهور المتدينين للاضطلاع بأدوار اجتماعية، بعيدًا عن دور الدولة وانتظار رعايتها لهم.

وفي خضمّ هذا التمازج السياسي للحركة السلفية الجديدة، برز أيضًا وبصورة موازية وأحيانًا متقدمة، نوعٌ جديد من السلوك الفردي، هو نتاج رغبة في التمايز عند الفئات المتدينة عن باقي الفئات الاجتماعية، من حيث الملابس والمأكّل والرموز والشعائر الدينية؛ فتركز هذه الفئة على إطالة اللحى، وحلق الشارب، وارتداء الجلباب دون عقب القدم. ويقابله عند النساء ارتداء ما يصطلحون على تسميته باللباس الشرعي (الحجاب أو النقاب).

ومن أجل تعميق هذا التمايز، تقوم الحدود "الرمزية" بين المناطق التي تصير صافية نقيّة من كلّ اختلاط أو تمازج؛ فالحدود بين باب التبانة وجبل محسن، أو بين الضاحية الجنوبية لمدينة بيروت "وهي شيعية"، وبقية مناطق بيروت "السنيّة"، هي حدود مرسومة بقوة ومحترمة من خلال نظام رموز يفصل بوضوح بين "الداخل" و"الخارج"، أو بين "الأهل" و"الغرباء". تجدد هذه النظم الرمزية الهوية الخاصة. ولا تجعل من الانتماء والسلوك الشعائري نشاطاً دينياً فحسب، وإنما قاطرة قوية للمقاومة والممانعة²² تسمح لمنتسبيها ببلورة هوية أسطورية خيالية تساعدهم على تجاوز إشكالات حياتهم اليومية وإرباكاتها.

وحيث تكون الهوية موضوعاً للتعبئة الشعبية وللسياسة اليومية، وتصير أيقونة مقدسة ومحرمّة لحركات جماعية، لجماعات إثنية ودينية، أو لشعوب بأكملها، فإنّ المسارح الاجتماعية التي تدور عليها عملية تثبيت الصراع تتغيّر مشاهدتها حيث تنسحب الدوافع الاقتصادية والاجتماعية إلى المرتبة الثانوية، وتتقدّم الدوافع ذات السمة الثقافية والدينية.

ويبقى المسجد هو "المطرح" الاجتماعي؛ أي أنّه يحلّ محلّ المقهى، أو هو استكمال له في ظروف الفقر والهامشية. وهو يصبح بالنسبة إلى الشبان أول موقع محرّر لهم ضمن المجتمع، لهم فيه يد واستقلالية عن المؤسسات الرسمية والدينية²³. واكتملت الحاجة إلى بناء مطارح مستقلة تدار إدارة ذاتية خالية من أيّ نفوذ أو وجود للسلطة الرسمية والدينية، بتشكيل الجمعيات الخيرية وإقامة النوادي وأماكن التدريس واللهو للصغار والشبان. وسمح هذا التحرير للمكان لهذا الجيل من الشبان بالظهور أمام المجتمع (الظهورية)؛ فصاروا مرئيين بعد أن كانوا مخفيين أو متجاهلين.

أمّا المظهر الأخطر والأهمّ، فيتمثّل في شيوع الدعوة إلى إقامة دولة إسلامية أو إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، أو إلى رفض التعدد والتنوّع في المجتمعات، ورفض الاندماج الوطني، وبروز ظواهر الهويّات

²² كان سهيل القش وروحيه نبعه أستاذي خليل عكاوي ومقاومته الشعبية. وهما من نحت مصطلح الممانعة الذي صار شائعاً اليوم. انظر الفصل السادس الخاص بالدولة العثمانية (وهو من تحرير القش ونبعه) في كتاب: سهيل القش، في البدء كانت الممانعة (بيروت: دار الحداثة، 1980). (العثملي أو في المسألة التاريخية: ص120-140، يليه ملاحق هي نصوص مترجمة لماركس عن تركيا 141-162 إلخ...)

²³ ومن هنا فقد دارت حروب للسيطرة على المساجد لم يكن أهمّها الحرب مع دار الفتوى بل الحرب مع جماعة الأحباش المدعومين من المخابرات اللبنانية - السورية. وكان أول "شهداء الحالة السلفية" الشيخ أسامة قصاص الذي اغتاله الأحباش في طرابلس.

المذهبية - الدينية والعرقية - الإثنية، وتراجع الانتماء الوطني وضرب معنى المواطنة، وانتشار ظواهر التكفير والتخوين وتهم الردّة والفسق والبدعة²⁴.

السلفية الجديدة إذن هي وسيلة/أداة كي يسترجع الدين/الطائفة دوره "الممانع" من جهة، والمتغلب من جهة أخرى: ممانعة الاستتباع والتهميش، والانتقال إلى الغلبة/التغلب والاستيلاء. إنَّها تعبير ديني حيوي متجدّد يرفض الممارسات الشكلية الروتينية والنخب والرموز القيمة عليها، وينتج نخبته ورموزه (شيوخه) ويعطيهم مكانة اعتبارية (ومظاهر شبه قداسية)، ويولّد حماسة ورهبة قداسية.

وتعيد محاولة السلفيين الجدد أدلجة "التسنن" وفقاً لخرائط الصراع السياسي الراهن، إنتاج المذهب السنّي بشروط جوهر الفكر الطائفي والتموضع الطائفي (العشائري): أي المخيال العصبوي الجماعاتي،²⁵ فهم يلتزمون أولاً وأخيراً باراديمياً بفكر "الجماعة الدينية" التي ترى نفسها طرفاً في الصراع والدفاع عن المقدّس وبعثه وسط جماعات أخرى²⁶.

والحال أنّ العامل الطائفي (العصبوية الجماعية سواء كانت مذهبية دينية أو عشائرية إثنية، كما في حالة الأكراد) هو ما يمنح الجماعة الدينية - السياسية التماسك والاستمرار؛ فهو الروح بالنسبة إلى جسد الجماعات المختلفة وبخاصة تلك التي تعيش جنباً إلى جنب؛ فلا يمكن تخيل نجاح جماعة دينية ما، من غير تأسيس عصبوي جماعاتي يعدّ العامل الحاسم في استمرارها وقوتها. ولا يعاد إنتاج الميكانيزم الطائفي إلا وفقاً لخرائط الطوائف الأخرى (أي لا طائفية إلا من ضمن حقل صراع طائفي)²⁷.

²⁴ حول هذه المسائل انظر: الجماعات الإسلامية والعنف (بيروت: دار مدارك، آب/أغسطس 2011).

²⁵ حمود حمود، إخوان الأصولية والطائفية، إخوان دمشق نموذجاً (برلين/ألمانيا: كراسات البوصلة - شرق المتوسط، 2003)، ص 24-30.

²⁶ Aron Lund, "Struggling to Adapt: The Muslim Brotherhood in a New Syria", *carnegie endowment for international peace*, (7/5/2013), on:

<http://carnegieendowment.org/2013/05/07/struggling-to-adapt-muslim-brotherhood-in-new-syria/g2qm>

²⁷ مفهوم الحقل: ارتبط باسم بيار بورديو الذي نحتة، فقد قسم المجتمع إلى حقول لها استقلالها النسبي ومنطقها الخاص بها بعيداً عن كلّ النزاعات المختزلة للوقائع والحقائق الاجتماعية، كالحقل السياسي، والحقل الاقتصادي، والحقل الثقافي ... والحقول كأماكن تشكل فيها الحسّ المشترك، أماكن مشتركة، أنساق نموذجية، لا يمكن اختزال بعضها في البعض الآخر.

فالهوية الطائفية تتبني انطلاقاً من آلية مزدوجة من التمايز والتماهي مع المحيط. والمحيط هنا هو عامل فاعل أولي في إدامة هوية خاصة. الهوية هي إذاً وبشكل ما نتاج المجتمع والتراث الثقافي. قد تمارس بعض العناصر دوراً أكثر تعبوية واستثارة للهوية: الدين خصوصاً. غير أنّ التركيز على العنصر الديني في بناء الهوية وتعبئتها واستثارتها لا يكون من باب الإيمان أو التقوى، بل من باب إستراتيجيات الهوية وإثبات الذات.

وبطابق السلفيون الجدد ذاتهم مع الإسلام السنّي (مستفيدين من فراغ المؤسسة الدينية). ويضعون أنفسهم في موقع تمثيل "الذاكرة الأكثرية" في مواجهة قطاعات اجتماعية أخرى رأوا فيها أنها احتكرت فضاءً سياسياً (تيار المستقبل، أو الجماعة الإسلامية "الإخوانية")، في حين أنّهم يعدّون أنفسهم "الجهة الشرعية" المخوّلة لإزاحتها، ومن ثمّ لتمثيل تلك الذاكرة العصبوية.

خاتمة

لقد قامت الأزمة السورية وتنامي الاستقطاب المذهبي في عموم المنطقة بدورٍ رئيس في التحولات التي طرأت على التيار السلفي اللبناني، باتجاه مواقف أكثر راديكالية مترافقة مع إنتاج هوية خاصة تمايزه عن كلّ الآخرين، بما في ذلك البيئة السنّية المحيطة. وحصل هذا التحول قبل قيام "داعش"²⁸ بالتوسّع والاستيلاء

يمكن هذا التقسيم عالم الاجتماع من دراسة المجال والتعرف عليه في جوهره كما هو، وذلك برصد مختلف معطياته وأوضاعه ومؤثراته، دون الوقوع في الأحكام العامة. أو بإيضاح أكثر الحقل عند بيار بورديو ليس تمثلاً ذاتياً أو بناءً نظرياً للعالم، بل على العكس له وجود واقعي مادي، تعكس صورته المؤسسات التي تعبّر عنه وتحدّد كيانه، لكن ليس بعيداً عن مجموعة من الفاعلين الاجتماعيين

الذين يعدّون بمنزلة عملاء قبلوا استثمار ذواتهم وإمكاناتهم المادية والمعنوية داخل حقل معيّن، بل أكثر من ذلك سمحوا لأنفسهم بأن يتعرضوا لشئى أنواع المنافسة والصراع لكن ليس بصورة مادية بل بصورة رمزية. ويحمل كلّ حقل في ثناياه نمطين من الصراع؛ الأول داخلي بين عملائه وفاعليه الذين يتنافسون من أجل أخذ مراكز القوة والتعبير عن الحقل وتمثيله، واحتكار منافعه التي يجنيها، ومن جهة أخرى يخضع الحقل للصراع بين ممثليه القداماء أو كما يسمّيه بورديو "الأسماء المكرسة" و"الوافدين الجدد عليه". أمّا الثاني، فهو صراع خارجي بين الحقل برمّته أي بنيته الكاملة وباقي الحقول المنافسة. ولكن في نظر بورديو لا يمكن الحديث عن هذا النوع من الصراع إلا إذا وُجد حدّ أدنى من المصالح المشتركة بين مختلف العملاء الذين ينتمون إلى الحقل الواحد. انظر:

Patrice Bonnewitz, *Premières leçons sur la sociologie de Pierre Bourdieu*, 2eme ed. (PUF, Paris, 2002).

²⁸ الدولة الإسلامية في العراق والشام والمعروفة اختصاراً بـ "داعش"، هو تنظيم مسلح يتبني الفكر السلفي الجهادي، ويهدف أعضاؤه إلى إعادة "الخلافة الإسلامية وتطبيق الشريعة"، يمتدّ في العراق وسورية. زعيم هذا التنظيم هو أبو بكر البغدادي.

على مناطق كبيرة في سورية والعراق، ثم إعلانها قيام دولة الخلافة الإسلامية²⁹ ومبايعة العديد من الجماعات السوريّة المقاتلة "أمير المؤمنين" البغدادي³⁰. فكيف سيتطوّر الوضع في لبنان في ظلّ المتغيرات الجديدة، إذ هناك ما يكفي من الأسباب للقلق بخصوص إمكانية انفجار الوضع على شكل حرب طائفية أكثر دموية وأشدّ قسوة ممّا عرفه لبنان عبر تاريخه.

²⁹ أعلن "داعش" بتاريخ 29 حزيران/يونيو 2014 عن الخلافة الإسلامية ومبايعة أبي بكر البغدادي خليفة للمسلمين، وقال الناطق الرسمي باسم الدولة أبو محمد العدنانى إنّه جرى إلغاء اسمي العراق والشام من مسمى الدولة، وإنّ مقاتليها أزالوا الحدود التي وصفها بالصنم، وإنّ الاسم الحالي سيُلغى ليحلّ بدلا منه اسم الدولة الإسلامية فقط.

³⁰ "هكذا يسيطر (داعش) على دير الزور ويحاصر البلدات الثائرة"، العربي الجديد، 7 تموز/يوليو 2014، على الرابط: